الخطبة الثالثة: الابتلاء سنة الله في خلقه

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضِل له، ومن يضلل فـلا هـادي لـه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديثِ كِتاب اللهِ، وأحسن الهدي هدي محمـدٍ، وشـر الأمورِ محدثَاتها، وكُل محدثَةٍ بِدعةٌ، وكُل بِدعةٍ ضلَالَةٌ، وكُل ضلَالَةٍ فِي النارِ.

إلى من ابتلاهم الله بالشدائد والكروب، إلى من أراد الله تمحيصهم بالأسقام والعيوب، فذاك مريض فقد صحته، وآخر حار في معرفة سقمه وفهم علته، وثالث خارت قواه وزالت بشاشته، وهم مع ذلك ذاكرون شاكرون وصابرون محتسبون.

فكم من نعمة لو أعطيها العبد كانت داءه، وكم من محروم من نعمـة حرمانـه شفاؤه؛ قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾

إخوة الإيمـان :

البلاء لغة: قال صاحب اللسان: بلوت الرجلَ بلْواً وبلاءً وابتليته: اختبرته وبلاه يبلُوه بلْواً إذا جربه واختبره.

والبلاء: الإنعام قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ٣٣﴾ **أي: إنعـام بين** [1]

وحديثنا عن المعنى الأول للبلاء، وهوالاختبار والامتحان.

فوائد البلاء:

إن للبلاء فوائد كثيرة:

(١) منها أنه جعل لتمييز الصف المسلم من الدخلاء والمنافقين:

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩]

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمد :٢٦]

قال ابن عباس: (حتى نعلم) أي: حتى نميز.

1- لسان العرب مادة (بلا) طبعة: صادر، بيروت.

(٢) ومنها أن البلاء للعباد لرفع درجاتهم وتكفير سيئاتهم:

كما في صحيح البخاري أنهﷺ قال:«**من يرِدِ اللهِ بِهِ خيرا يصِب مِنه**» [١] أي يبتليه بالمصائب والمحن والشدائد والفتن ؛ ليرفع درجاته ويكفر من سيئاته علـى ما يكون منه من الصبر والاحتساب.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قَالَ: رسول اللهﷺ: «**ما يصِيب الْمسلِم مِـن نصبٍ ولا وصبٍ ولا هم ولا حزنٍ ولا أذًى ولا غَم حتى الشوكةِ يـشاكُها إِلـا كفر اللهِ بِها مِن خطاياه** » [٢]

وعن جابِر بن عبدِ اللهِ (رضي الله عنهما) أن رسولَ اللهِ ﷺ دخلَ علَـى أُم السائِبِ أو أُم الْمسيبِ فَقَالَ: "**ما لَكِ يا أُم السائِبِ أو يا أُم الْمسيبِ تزفْـزِفين؟** قَالَتِ: الْحمى لا بارك الله فِيها. فَقَالَ: "**لا تسبي الْحمى؛ فَإِنها تذْهِب خطايا بنِي آدم كَما يذْهِب الْكِير خبثَ الْحدِيدِ** »[٣]

فلعل لك عند الله منزلة لا تبلغها بعملك، فما يزال الله تعالى يبتليك بحكمته حتى تبلغ تلك المنزلة .

(٣) وقد يكون البلاء دليلا على محبة الله للعبد:

فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إِن عِظَم الْجزاءِ مع عِظَمِ الْبلاءِ، وإِن الله إِذَا أحب قَوما ابتلاهم، فَمن رضِي فَله الرضا، ومن سخِطَ فَله السخطُ**»[٤]

1- البخاري (٥٢١٣) .

2- البخاري (٥٢١٠) ومسلم (٤٦٦٧) .

3- مسلم (٤٦٧٢)، ومعنى تزفزفين: تتحركين حركة شديدة أي ترعدين.

4- الترمذي(٢٣٢٠) وابن ماجه (٤٠٢١)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة(١٤٦)

وقالﷺ: **"إِذَا أراد الله بِعبدِهِ الخير عجلَ له العقُوبةَ فِي الـدنيا[1]، وإِذَا أراد الله بِعبدِهِ الشر أمسك عنه بِذَنبِهِ حتى يوافِي بِهِ يوم الْقِيامةِ"[2]**

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قَالَ: قُلْت يا رسولَ اللهِ: أي الناسِ أشد بلاءً؟ قَالَ: **"الْأَنبِياءُ ثُم الصالِحونَ، ثُم الْأَمثَلُ فَالْأَمثَلُ مِن الناسِ، يبتلى الرجلُ على حـسبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صلابةٌ زِيد فِي بلائِهِ، وإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقةٌ خفف عنـه، وما يزالُ الْبلاءُ بِالْعبدِ حتى يمشِي على ظَهرِ الْأَرضِ لَيس علَيهِ خطِيئَةٌ "** [3]

(٤) البلاء سبب لدخول الجنة:

قال تعـالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة :٢١٤]

وقال تعـالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

[البقرة:١٥٥، ١٥٦]

1- وليس معنى ذلك أن الإنسان يتمنى البلاء بل لقد نهى النبي ﷺ الرجل الذي كان يقول: اللهـم إن كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال النبيﷺ: "سبحان اللـهِ لَـا تُطِيقُـه أَو لَـا تَستَطِيعه! أَفَلَا قُلْتَ: اللهم آتِنَا فِي الدنْيا حسنَةً وفِي الْآخِرةِ حسنَةً وقِنَا عذَاب النارِ " انظر الحديث عند مسلم

(٤٨٥)

2- الترمذي(٢٣١٩)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٤٣) .

3- الترمذي (٢٣٢٢) وابن ماجه في (٤٠١٣) ، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة (١٤٣) .

الله أكبر .....أي فضل بعد صلوات الرب ورحمته وهداه.

ومعنى صلاة الله على العبد: أي الثناء الحسن عليه والغفران، كما قال أبـو العالية : صلاة الله على العبد : ثناؤه عليه في الملأ الأعلى .

وعن عطاء بن أبي رباحٍ قَالَ: قَالَ لي ابن عباسٍ: أَلا أُريك امرأَةً مِن أَهـل الْجنةِ؟ قُلْت: بلَى قَالَ: هذِهِ الْمرأَةُ السوداءُ أَتتِ النبِي ﷺ فَقَالَت: إِني أُصرع وإِني أَتكَشف فَادع اللهَ لِي. قَالَ: "**إِنْ شِئْتِ صبرتِ ولَكِ الْجنةُ وإِنْ شِئْتِ دعوت الله أَنْ يعافِيكِ**" فَقَالَت: أَصبِر فَقَالَت: إِني أَتكَشف فَادع اللهَ لِي أَنْ لا أَتكَشف! فَدعا لَها"[1]

وعن أنس ﷺ قال: سمِعت النبِيﷺ يقُولُ:"**إِن الله قَـالَ: إِذَا ابتلَيـت عبدِي بِحبِيبتيهِ فَصبر عوضته مِنهما الْجنةَ يرِيد عينيهِ**" [2] والحبيبتان: هما العينان.

وورد عنه ﷺ أنه قال: "**إذا مات ولد الرجل يقول الله تعـالى لملائكتـه: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم . فيقول: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم . فيقول: فماذا قال عبدي ؟ قال: حمدك و استرجع . فيقول : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة و سموه بيت الحمد**" [3].

(5) تحقيق العبودية لله رب العالمين:

فإن كثيراً من الناس عبد لهواه وليس عبداً لله، يعلن أنه عبد لله، ولكـن إذا ابتلي نكص على عقبيه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، قال تعـالى:

1- البخاري (٥٢٢٠) ومسلم (٤٦٧٢) .

2- البخاري في المرضى (٥٢٢١).

3- حسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٠٨) .

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾(الحج/١١).

(٦) الابتلاء إعداد للمؤمنين للتمكين في الأرض:

قيل للإمام الشافعي رحمه الله: أيهما أفضل: الصبر أو المحنة أو التمكين ؟ فقال: التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتحن صبر، وإذا صبر مكن، ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكا، والتمكين أفضل الدرجات، قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ، وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكنه قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ **(الأنبياء)** [1]

(٧) الابتلاء فرصة للتفكير في العيوب:

عيوب النفس وأخطاء المرحلة الماضية؛ لأنه إن كان عقوبة فأين الخطأ؟

(٨) البلاء درس من دروس التوحيد والإيمان والتوكل:

يطلعك عمليّاً على حقيقة نفسك؛ لتعلم أنك عبد ضعيف، لا حول لك ولا قوة إلا بربك، فتتوكل عليه حق التوكل، وتلجأ إليه حق اللجوء، حينها يسقط الجاه والخيلاء، والعجب والغرور ، وتفهم أنك مسكين يلوذ بمولاه، وضعيف يلجأ إلى القوي العزيز سبحانه.

1- انظر: الإحياء.

قال ابن القيم:

فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا وبغوا وعتـوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً سقاه دواءً من الابتلاء والامتحان على قدر حالـه، يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه: أهله لأشرف مراتـب الدنيا، وهي عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته وقربه. انتهى [1].

(٩) الابتلاء يخرج العجب من النفوس ويجعلها أقرب إلى الله:

قال ابن حجر: قوله :﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ روى يونس بن بكير في زيادات المغازي عن الربيع بن أنس قَالَ: قَالَ رجل يوم حنين: لن نغلب اليوم من قلة، فَشق ذَلِك على النبيّ ﷺ فَكَانت الْهزيمة .." [2]

قلت: أي الهزيمة في أول الأمر.

قال ابن القيم:

واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وعددهم وقوة شوكتهم؛ ليضع رؤوسا رفعت بالفتح ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله واضعا رأسه منحنيا على فرسه؛ حتى إن ذقنه تكـاد تمس سرجه تواضعا لربه وخضوعا لعظمته واستكانة لعزته"[3] .

(١٠) إظهار حقائق الناس ومعادنهم:

فهناك ناس لا يعرف فضلهم إلا في المحن.

1- زاد المعاد (٤ / ١٩٥)

2- فتح الباري (٨/ ٢٧)، تعليق: الشيخ عبد العزيز بن باز، ومحب الدين الخطيب، دار الفكر .

3- زاد المعاد (٣/ ٤٧٧) .

قال الفضيل بن عياض: الناس ما داموا في عافية مستورون، فإذا نزل بهـم بلاء صاروا إلى حقائقهم؛ فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه[1].

وروى البيهقي في "الدلائل" عن أبي سلمة قَالَ: أُفْتِن ناس كثير - يعني - عقب الإسراء - فَجاءَ ناس إلى أبي بكْر فَذَكَروا لَه فَقَالَ: أشهد أنه صادِق . فَقَالُوا: وتصدقه بأنه أتى الشام في ليلة واحِدة ثُم رجع إلى مكة ؟ قَالَ: نعم، إني أصدقه بأبعد من ذَلك، أصدقه بخبر السماء، قَالَ: فَسمي بذَلك الصديق [2].

(١١) الابتلاء يربي الرجال ويعدهم:

لقد اختار الله لنبيه ﷺ العيش الشديد الذي تتخلله الشدائد منذ صغره؛ ليعده للمهمة العظمى التي تنتظره، والتي لا يمكن أن يصبر عليها إلا أشداء الرجال، الذين عركتهم الشدائد فصمدوا لها، وابتلوا بالمصائب فصبروا عليها.

نشأ النبي ﷺ يتيماً ثم لم يلبث إلا يسيرا حتى ماتت أمه أيضاً.

والله سبحانه وتعالى يذكّر النبي ﷺ بهذا فيقول ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾ .

فكأن الله تعالى أرد إعداد النبي ﷺ على تحمل المسئولية ومعاناة الشدائد من صغره.

(١٢) ومن حكم هذه الابتلاءات والشدائد: أن الإنسان يميز بين الأصدقاء الحقيقيين وأصدقاء المصلحة:

كما قال الشاعر:

جزى الله الشدائد كل خير ... وإن كانت تغصصني بريقي

وما شكري لها إلا لأني عر ... فت بها عدوي من صديقي

1- موسوعة فقه الابتلاء لـ : علي بن نايف .

2- صححه الشيخ الألباني في الصحيحه(٣٠٦) .

(١٣) الابتلاء يذكرك بذنوبك لتتوب منها:

والله عز وجل يقـول: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ (النـساء:٧٩)، ويقـول سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ (الشورى:٣٠).

فالبلاء فرصة للتوبة قبل أن يحل العذاب الأكبر يوم القيامة؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [السجدة/٢١]

والعذاب الأدنى هو نكد الدنيا ونغصها، وما يصيب الإنسان من سوء وشر.

وإذا استمرت الحياة هانئة، فسوف يصل الإنسان إلى مرحلة الغرور والكبر ، ويظن نفسه مستغنياً عن الله، فمن رحمته سبحانه أن يبتلي الإنسان حتى يعود إليه.

(١٤) الابتلاء يكشف لك حقيقة الدنيا وزيفها وأنها متاع الغرور:

وأن الحياة الصحيحة الكاملة وراء هذه الدنيا، في حياة لا مرض فيها ولا تعب قال تعـالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ (العنكبوت:٦٤)، والحيوان جمع حياة؛ لأن حياة تجمـع علـى حيوات وعلى حيوان، ومعناها الحياة الحقيقية، أما هذه الدنيا فنكد وتعب وهـم ، قال تعالى : ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤﴾ (البلد:٤) .

١٥- الابتلاء يذكرك بفضل نعمة الله عليك بالصحة والعافية:

فإن هذه المصيبة تشرح لك بأبلغ بيان معنى الصحة والعافية الـتي كنـت تمتعت بهما سنين طويلة، ولم تتذوق حلاوتهما، ولم تقدرهما حق قدرهما.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: "لم **يؤت بعد اليقين خير من المعافاة**" [1]

المصائب تذكرك بالمنعِم والنعم، فتكون سبباً في شكر الله سبحانه على نعمته وحمده وصدق من قال:

إذا كنت في نعمة فارعها فـإن المعاصي تزيل النعم

وحفها بطاعة رب العباد فـرب العباد سريع النقم

وحـاذر ظلم العـ ـباد فظلم العباد شديد الوخم

١٦ - الشوق إلى الجنة:

لن تشتاق إلى الجنة إلا إذا ذقت مرارة الدنيا، فكيف تشتاق للجنة وأنت هانئ في الدنيا؟

فهذه بعض الحكم والمصالح المترتبة على حصول الابتلاء وحكمة الله تعـالى أعظم وأجل.

البلاء لا ينجو منه أحد حتى الأنبياء:

فالابتلاء ليس قاصراً على أحدٍ معين من الناس، ولا ينجو منه بر ولا فاجر، وإن تباينت الصور وتفاوتت المراتب على حسب الناس، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت:٢]

فلو نجى أحد من البلاء لنجى منه الأنبياء والمرسلون، ومـن تـابعهم مـن الأولياء والصالحين. فالأنبياء جميعا ٱبتلوا، فمنهم من ابتلي بالمرض،ومنهم من ابتلـي بالأذى من قومه.

1- صححه الشيخ الألباني في الأدب المفرد (٧٢٤) .

إذا كان البلاء يزيد المؤمن إيماناً فلماذا يبتلى الكفار؟

ما يصيب الإنسان من مصائب وأحزان قد يكون عقوبة من الله له بسبب سوء عمله قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الشورى : آية ٣٠]

فمثلاً ظهور الإيدز في أوربا بسبب الزنا، فهذا بسبب سوء صنيعهم، وأمثال ذلك كثير،

أما إذا إذا علم من هذا الشخص المبتلى أنه ذو صلاح وتقى فهذا ابتلاء من الله له لتمحيصه وزيادة حسناته.

نماذج في الصبر على البلاء:

(١) قصة نبي الله أيوب عليه السلام مع المرض:

قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الأنبياء ٨٣:٨٤]

وقد قص علينا رسول الله ﷺ طرفا من صبره فقال:"**إن نبي الله أيوب عليه السلام لبث به بلاؤه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه: وما ذاك ؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له فقال أيوب: لا أدري ما تقولان غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما؛ كراهية أن يذكر**

الله إلا في **حق قال: وكان** يخرج إلى **حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته بيده** حتى **يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها وأوحي إلى أيوب أن** ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ **فاستبطأته فتلقته تنظر وقد أقبل عليها، قد أذهب الله ما به من البلاء وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك ! هل رأيت** نبي الله **هذا المبتلى؟ والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحا ! فقال: فإني أنا هو، وكان له أندران** [1] **(أي بيدران): أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب** حتى **فاض، وأفرغت الأخرى** في **أندر الشعير الورق** حتى **فاض"** [2].

وقد كثرت الأقوال في الضر الذي أصاب أيوب عليه السلام، حتى ذكر القرطبي في تفسيره ستة عشر قولا. [3]

1- معني الأندر: البيدر بلغة أهل الشام، وهو المكان الذي يداس فيه الطعام.

2- ابن حبان (٢٨٩٨)، وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة(١٧)..

3- القرطبي(٦/ ٢٩٠-٢٩٣) ط: دار الحديث .

قال الشيخ محمد حجازي في التفسير الواضح:

وذلك لأن الناس يوردون في مرض أيوب أقوالا تدل على أنه كان مرضا منفرا للناس، وهذا يتنافى مع منصب النبوة؛ إذ الأنبياء منزهون عن الأمراض المنفرة، وهم في هذا يعتمدون على ما جاء عند أهل الكتاب في السفر المسمى بسفر أيوب، وقد اختلف في واضع هذا السفر هل هم اليهود أو غيرهم ؟ ...ولو صح هذا الكلام فيكون الابتلاء بهذا الشكل إنما كان قبل النبوة .

ثم قال : أما القول الحق فهو أن أيوب عبد صالح امتحنه الله في ماله وأهله وولده وبدنه ثم من الله عليه بالعافية، وأعطاه أكثر مما فقد، وأثنى عليه ثناء جميلا في القرآن وجعله نبيا ولم يكن عنده المرض المنفر انظر في ذلك التفسير الواضح للشيخ: محمد محمود حجازي(٢٨/٢) باختصار وتصرف

ومن قصة أيوب عليه السلام نتعلم أنه إذا أصاب العبد مصيبة، وطلب مـن الله كشفها فهذا لا ينافي الصبر، قال بعض السلف: سبحان من ابتلى عباده بالبلاء؛ ليسمع منهم الدعاء قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾[الأعراف:٩٤]

وإنما ينافي الصبر شكوى الله للعباد، وإظهار الجزع والتأفف من قـضاء الله عز وجل.

وبهذا يتبين مدى خطأ وضلال قول القائلين: سؤالك الله ، اتهام لله تعالى الله عما يقولوه الجاهلون علوا كبيرا.

(٢) نبي الله يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام:

لقد امتحن الله يعقوب بفقد ابنه يوسف عليهما السلام وهو أحب أبنائـه إليه، وكان فراقه بعد مؤامرة مدبرة له، وهي مؤامرة من قبل القربى وهذا مما يزيـد من هولها وصعوبتها على نفس يعقوب عليه السلام، وفي ذلك يقول المتنبي:

وجرح ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

وصبر يعقوب عليه السلام صبر الآمل الراجي فضل الله، حتى رد الله عليـه ولده بعد طول غياب.

وها هو يوسف ولده يلقى في الجب، وتراوده امرأة العزيـز ذات المنـصب والجمال في غيبة عن أعين الناس جميعا إلا عين علام الغيوب فقال: (إني أخاف الله رب العالمين)، ثم يبتلى عليه السلام بالعز والتمكين بعد الضيق والشدة، وقد يكون الابتلاء بالخير أشد من الابتلاء بالشر.

(٣) قصة نبي الله نوح عليه السلام مع البلاء:

لقد مكث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين سنة، فلم يجد منهم إلا الاستكبار والعناد، ومع ذلك يمضي نوح عليه السلام عبر هذه السنوات المتواليه والأجيال المتلاحقة دون كلل أو ملل، وكلما أعرضوا بدل وغيّر في أسلوب الدعوة.

ولم يكن بلاء نوح عليه السلام قاصرا على قومه فقط، بل تعداه إلى أهل بيته، وهذا من أعظم الشدائد والمحن التي يبتلى بها الأنبياء.

فقد عصاه ولده وزوجته قال تعالى :﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم :١٠]

والخيانة المذكورة في الآية هي خيانة الدين والعقيدة؛ حيث إن هاتين المرأتين المذكورتين في الآية كانتا على دين قومهما ولم تسلما، وليس المقصود خيانة الفراش؛ لأنه لا توجد امراة نبي قط خائنة في الفراش.

(٤) نبي الله إبراهيم عليه السلام مع البلاء:

وكما أن نوحا عليه السلام ابتلي بكفر ولده وزوجه ، فقد ابتلي إبراهيم عليه السلام بكفر أبيه أزر فقال له: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم :٤٦]

وابتلي عليه السلام بإلقائه في النار فما جذع ولا لجأ إلا إلى الله فقال: "حسبي الله ونعم الوكيل"[1] فكانت النار عليه كما أراد الله وليس كما أراد أعداء الله

وابتلي عليه السلام كذلك بالهجرة وترك البلاد، وتركه ولده وزوجه في واد لا زرع فيه ولا ماء. [2]

(5) موسى عليه السلام مع البلاء:

وقد أرسله الله ليواجه طاغوت فرعون وجبروت هامان وكبرياء قارون.

فما أن بلّغ موسى رسالة ربه حتى طفق فرعون يهدده ويتوعده تارة بالقتل: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر:٢٦]، وتارة بالسجن: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء:٢٩]

ومع كل ذلك يصبر موسى عليه السلام ويوجه قومه إلى معين الصبر﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨]

حتى تحقق نصر موسى ومن معه [3]،وغرق جند الباطل.

1- البخاري (٤١٩٨).

2- وانظر تفصيل ذلك في خطبة تأملات في الحج وقصة الذبيح من نفس الكتاب .

3- وهذا دائما مصير كل داع أخلص لله في دعوته، يكتب الله له النصر والتمكين، حتى لو لم ير ثمرة دعوته.

(٦) روح الله [1] عيسى عليه السلام مع البلاء:

وقد بعثه الله إلى بني إسرائيل فلم يجد من أحبارهم إلا التكذيب والعـصيان والمؤامرات التي كانت ثمرتها أنهم قرروا قتله وصلبه، ولكن الله أحبط سعيهم وخيب ظنهم قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء ١٥٨:١٥٦]

1- قولـه تعـالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴿١٧١﴾﴾ [النساء١٧١] المقصود بقوله تعالى (كلمته) أي: كن فيكون، وقوله تعالى(وروح منه) لا يفهم منه أن عيسى ابن الله كما زعم النصارى، والرد عليهم أن حرف الجر (من) يستعمل في الابتداء كما في قوله تعـالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ أي ابتـداء الرحلة كان من المسجد الحرام، كما قال ابن مالك في ألفيته:

بين وبعض وابتدِ في الأمكنة بمن وقد تأتي لبدء الأزمنة .

وأنا أقول لشخص ما: أنا أعطيتك المال مني أي من مالي الخاص فهل هذا المـال جـزء مـن الشخص؟ لا إنما بداية الإعطاء كانت منه، كذلك الحال هنا، فبداية خلق هذه الروح من الله فهـي روح عادية كبقية الأرواح:

أعباد المسيح لنا سـؤال ... نريـد جوابـه ممـن وعـاه

إذا مات الإله بصنع قـوم ... أماتـوه فهـل هـذا إلـه

فيا عجا لقبر ضـم ربـا ... وأعجـب منـه بطن قد حواه

أقام هناك تسعا من شهور ... لدى الظلمات من حيض غذاه

وشـق الفـرج مولـودا ... صغيـرا فاتحـا للثـدي فـاه

فيأكـل ويشرب ثم يأتـي ... بـلازم هـذا فهـل هـذا إلاه

تعالـى الله عن إفك النص ... ارى سيسأل جمعهم ممن افتراه

(٧)خاتم الأنبياء وسيد المرسلين مع البلاء:

لقد وضع الله هذه النماذج أمام المصطفىﷺ؛ لكي تكون زاداً له لتحمـل أعباء الدعوة العالمية، فقال له في سورة هود بعد أن قص عليه قصص السابقين مـن الأنبياء وما لاقوه مـن أذى قـومهم: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود :١٢٠]

وقال له الله أيضا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ [الأحقاف:٣٥]

وقد تعرض كغيره من الأنبياء للأذى، ويتمثل أذاهﷺ فيما يلي:

(أ) أذى كفار قريش له:

فمن ذلك أن عقبة بن أبي معيط – عليه لعنة الله ـ خنقه بطرف ردائه، وألقى على ظهره الشريف سلى الجزور وهو ساجد ﷺ أمام الكعبة ، وكذلك قولهم عليه مرة أنه ساحر، ومرة كاهن ، ومرة شاعر.

ولما استقر ﷺ في المدينة لم ينقطع أذاهم له، ففي غزوة أحد كما في صـحيح مسلم من حديث أنس" جرِح وجه رسول اللهِ ﷺوكُسِرت رباعِيته، وهشِمتِ الْبيضةُ علَى رأْسِهِ، َكانت فَاطِمةُ ِبنت رسول اللهِﷺ تغسِلُ الدم، وكَانَ عِلِي بن أَبِي طَالِـبٍ يسكُب علَيها ِبالْمِجن، َلما رأَت فَاطِمةُ أَن الْماءَ لَا يزِيد الدم ِإلا كَثْرةً أَخذَت ِقطْعـةَ حصِيرٍ فَأَحرقَته حتى صار رماداً، ُثم أَلْصقَته ِبالْجرحِ فَاستمسك الدم"[1]

1- مسلم (٣٣٤٥) ، والبيضة:الخوذة أو ما يغطي به المحارب رأسه، والمجن: الدرع الواقي للمقاتل، والرباعية: السن بين مقدم الأسنان والناب.

وعن ابن مسعود ﷺ : "كَأَني أَنظُرِ إِلَى النِبي ﷺ يحكِي نِبيا مِـن الْأَنبِيـاءِ ضربه قَومه فَأَدموه، فَهو يمسح الدم عن وجهِهِ ويقُولُ:"**رب اغْفِر لِقَومِي؛ فَإِنهم لَا يعلمونَ**" [1]

نعم صدق من سماه الرؤوف الرحيم

(ب) تعرضه ﷺ لمحاولات القتل:

وكذلك ما كان من جانب اليهود – عليهم لعنة الله – ومن ذلك محاولـة قتله بوضع السم في شاة أهدتها له يهودية كما في الصحيحين من حديث أنس.

(ج) ما لاقاه ﷺ من الأذى من المنافقين:

ومن ذلك ما قال عدو الله عبد الله بن أبي بن سلول عنه ﷺ حين مر عليهم راكبا حماراً له قال: غبر علينا ابن أبي كبشة. (أي : أراد النبي ﷺ) [2]

ولعل أعظمها ماكان من حديث الإفك – أي الكذب- الذي زلزل كيان البيت النبوي، واتهمت فيه أمنا عائشة (رضي الله عنها) بالبهتان وهـي الحـصان الرزان، وقد نزلت في براءتها آياتها من سورة النور.

(د) ما لاقاه ﷺ من أذى بعض أتباعه من ضعاف الإيمان من الأعراب وغيرهم:

من هذا مثلا ما في الصحيحين أن رجلاً من بني تميم (ذو الخويصرة) جـاءه وهو يقسم سبيكة ذهبية فقال له: اعدل يا محمد [3]. ويأتيه الأعراب فيغلظون لـه

1- البخاري (٣٢١٨، ٦٤١٧)

2- أبو كبشة : زوج حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ فنسب بن سلول النبي ﷺ إلى أبى كبـشة مـن باب التنقيص .

3- البخاري (٦١٦٣)

في القول. وكان ﷺ يقابل هذا بالصبر وسعة الصدر ويقول: "**رحم الله موسى !قد أوذي بأكثر من هذا فصبر** " [1]

غير الأنبياء مع البلاء :

(١) أصحاب الأخدود:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾ **[البروج:١-١٢].**

عن صهيبٍ أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "**كانَ ملِك فِيمن كانَ قبلكُم وكانَ لَه ساحِر، فلما كبِر قالَ لِلْملِكِ: إِني قد كبِرت فابعثْ إِلي غُلاما أعلمه السحر فبعثَ إِليهِ غُلاما يعلمه، فكانَ فِي طرِيقِهِ إِذَا سلك راهِب فقعد إِليهِ وسمِع كلامه فأعجبه، فكانَ إِذَا أتى الساحِر مر بِالراهِبِ وقعد إِليهِ، فإِذَا أتى الساحِر ضربه فشكَا ذَلِك إِلى الراهِبِ فقالَ: إِذَا خشِيت الساحِر فقُلْ: حبسنِي أهلِي وإِذَا خشِيت أهلك فقُلْ: حبسنِي الساحِر.**

فبينما هو كذَلِك إِذْ أتى علَى دابةٍ عظِيمةٍ قد حبستِ الناس فقالَ: الْيوم أعلَم آلساحِر أفْضلُ أَمِ الراهِب أفْضلُ؟ فأخذَ حجرا فقالَ: اللهم إِنْ كانَ أمر

1- البخاري (٣٤٠٥)

الراهِبِ أحب إِلَيك مِن أمرِ الساحِرِ فَاقْتلْ هذِهِ الدابةَ؛ حتى يمضِي الناس فَرماها فَقَتلَها ومضى الناس، فَأتى الراهِب فَأخبره فَقَالَ لَه الراهِب: أي بني أنت الْيوم أَفْضلُ مِني قَد بلَغَ مِن أمرِك ما أرى، وإِنك ستبتلَى فَإِن ابتلِيت فَلَا تدل علَـي، وكَانَ الْغلَام يبرئ الْأَكْمه والْأَبرص ويداوِي الناس مِن سائِرِ الْأَدواءِ.

فَسمِع جلِيس لِلْمِلكِ كَانَ قَد عمِي فَأتاه بِهدايا كَثِيرةٍ فَقَالَ: ما هاهنا لَك أجمع إِنْ أنت شفَيتنِي. فَقَالَ: إِني لَا أشفِي أحدا إِنما يشفِي الله، فَإِنْ أنـت آمنت بِاللهِ دعوت الله فَشفَاك، فَآمن بِاللهِ فَشفَاه الله، فَأتى الْمِلك فَجلَس إِلَيهِ كَما كَانَ يجلِس، فَقَالَ لَه الْمِلك: من رد علَيك بصرك؟ قَالَ: ربي. قَالَ: ولَك رب غَيرِي؟ قَالَ: ربي وربك الله. فَأخذَه فَلَم يزلْ يعذبه حتى دل علَى الْغلَامِ فَجِيءَ بِالْغلَامِ فَقَالَ لَه الْمِلك: أي بني قَد بلَغَ مِن سِحرِك مـا تبـرِئ الْأَكْمـه والْأَبرص وتفْعلُ وتفْعلُ؟ فَقَالَ: إِني لَا أشفِي أحدا إِنما يشفِي الله. فَأخذَه فَلَـم يزلْ يعذبه حتى دل علَى الراهِبِ.

فَجِيءَ بِالراهِبِ فَقِيلَ لَه: ارجِع عن دِينِك فَأبى فَدعا بِالْمِنْشارِ فَوضـع الْمِنْشار فِي مفْرِق رأسِهِ فَشقه حتى وقَع شِقاه، ثُم جِيءَ بِجلِيسِ الْمِلكِ فَقِيلَ لَه: ارجِع عن دِينِك فَأبى، فَوضع الْمِنْشار فِي مفْرِق رأسِهِ فَشقه بِهِ حتى وقَع شِقاه.

ثُم جِيءَ بِالْغلَامِ فَقِيلَ لَه: ارجِع عن دِينِك فَأبى فَدفَعه إِلَـى نفَـرٍ مِـن أصحابِهِ فَقَالَ: اذْهبوا بِهِ إِلَى جبلِ كَذَا وكَذَا فَاصعدوا بِهِ الْجبلَ، فَـإِذَا بلَغـتم ذُروته فَإِنْ رجع عن دِينِهِ وإِلا فَاطْرحوه، فَذَهبوا بِهِ فَصعِدوا بِهِ الْجبلَ، فَقَـالَ: اللهم اكْفِنِيهِم بِما شِئْت! فَرجف بِهِم الْجبلُ فَسقَطُوا وجاءَ يمشِي إِلَى الْمِلـكِ فَقَالَ لَه الْمِلك: ما فَعلَ أصحابك؟ قَالَ: كَفَانِيهِم الله.

فَدفَعه إِلَى نفَرٍ مِن أَصحابِهِ فَقَالَ: اذْهبوا بِهِ فَاحمِلُوه فِي قُرقُورٍ فَتوسطُوا بِهِ الْبحر، فَإِنْ رجع عن دِينِهِ وإِلا فَاقْذِفُوه، فَذَهبوا بِهِ فَقَالَ: اللهم اكْفِنِيهِم بِما شِئْت! فَانكَفَأَت بِهِم السفِينةُ فَغرِقُوا، وجاءَ يمشِي إِلَى الْملِكِ فَقَالَ لَه الْملِك: ما فَعلَ أَصحابك؟ قَالَ: كَفَانِيهِم الله. فَقَالَ لِلْملِكِ: إِنك لَست بِقَاتِلِي حتى تفْعلَ ما آمرك بِهِ. قَالَ: وما هو؟ قَالَ: تجمع الناس فِي صعِيدٍ واحِدٍ وتصلُبنِي علَى جِذْعٍ، ثُم خذْ سهما مِن كِنانَتِي، ثُم ضع السهم فِي كَبِدِ الْقَوس، ثُم قُلْ: بِاسمِ اللهِ رب الْغلَامِ. ثُم ارمِنِي فَإِنك إِذَا فَعلْت ذَلِك قَتلْتنِي.

فَجمع الناس فِي صعِيدٍ واحِدٍ وصلَبه علَى جِذْعٍ، ثُم أَخذَ سهما مِن كِنانَتِهِ، ثُم وضع السهم فِي كَبِدِ الْقَوس، ثُم قَالَ: بِاسمِ اللهِ رب الْغلَامِ. ثُم رماه فَوقَع السهم فِي صدغِهِ، فَوضع يده فِي صدغِهِ فِي موضِعِ السهمِ فَمات. فَقَالَ الناس: آمنا بِرب الْغلَامِ آمنا بِرب الْغلَامِ آمنا بِرب الْغلَامِ.

فَأُتِي الْملِك فَقِيلَ لَه: أَرأَيت ما كُنت تحذَر قَد واللهِ نزلَ بِك حذَرك قَد آمن الناس، فَأَمر بِالْأُخدودِ فِي أَفْواهِ السكَكِ فَخدت وأُضرم النيرانَ، وقَالَ: من لَم يرجِع عن دِينِهِ فَأَحموه فِيها أَو قِيلَ لَه: اقْتحِم فَفَعلُوا حتى جاءَتِ امرأَةٌ ومعها صبِي لَها فَتقَاعست أَنْ تقَع فِيها فَقَالَ لَها الْغلَام: يا أُمهِ اصبِرِي؛ فَإِنك علَى الْحق" (١)

قال القرطبي: ذكر النبي ﷺ لأمته قصة الغلام ؛ ليصبروا على ما يلاقون من الأذى والآلام، والمشقات التي كانوا عليها؛ ليتأسوا بمثل هذا الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته، ودخول الناس في الدين مع صغر سنه وعظم صبره.

1- مسلم (٥٣٢٧)، والقرقور: بضم القافيه (السفينة الصغيرة).

وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار.

وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الايمان في قلوبهم، صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا في دينهم. [1]

(٢) أصحاب النبي ﷺ مع البلاء:

وما أكثر المعاناة التي عاناها أصحاب النبي ﷺ من أذى قريش، وقد ضـرب الصحابة أروع الأمثلة في الصبر والتحمل.

ومن ذلك على سبيل المثال ما قاله ابن مسعود ﷺ كما عند ابن ماجه بسند حسن قال عن الصحابة: فأخذهم المشركون، وألبسوهم أدراع الحديد، وصهروهم في الشمس" [٢].

وبالرغم من شدة صبرهم وشدة تحملهم إلا أن النبي ﷺكان يغضب عندما يرى منهم من يستعجل النصر والتمكين.

فعن خبابِ بنِ الْأَرت قَالَ شكَونا إِلَى رسول اللهِ ﷺ وهو متوسد بردةً لَـه فِي ظِل الْكَعبةِ قُلْنا لَه: أَلَا تستنصِر لَنا أَلَا تدعو الله لَنا؟ قَالَ: "**كَانَ الرجلُ فِـيمن قَبلَكُم يحفَر لَه فِي الْأَرض فَيجعلُ فِيهِ، فَيجاءُ بِالْمِنشارِ فَيوضع علَى رأْسِهِ فَيشق بِاثْنتينِ وما يصده ذَلِك عن دِينِهِ، ويمشطُ بِأَمشاطِ الْحدِيدِ ما دونَ لَحمِهِ مِـن عظْمٍ أَو عصبٍ وما يصده ذَلِك عن دِينِهِ، واللهِ لَيتمن هذَا الْأَمر حتـى يـسِير**

1- القرطبي (١٩/ ٢٩٣) .

2- ابن ماجه(١٧٤)، وأحمد(٣٦٤٠) ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح بن ماجه (١٤٧).

الراكِب مِن صنعاءَ إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الـذئب علـى غنمـه، ولكِنكُم تستعجِلُونَ "[1]

(٣) شيخ الإسلام- ابن تيمية- رحمه الله مع البلاء:

قال الشوكاني ـ رحمه الله : وقع للشيخ ـ رحمه الله ـ من أهل عـصره قلاقل وزلازل، وامتحن مرة بعد أخرى في حياته، والناس قسمان في شأنه، فبعض منهم مقصر به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بالعظائم، وبعض منهم يبالغ في وصفه ويجاوز به الحد ويتعصب له كما يتعصب أهل القسم الأول عليـه، وهـذه قاعدة مطردة في كل عالم يتبحر في المعارف العلمية، ويفوق أهل عصره، ويـدين بالكتاب والسنة فإنه لابد وأن يستنكر المقصرون، ويقع له معهم محنـة، ثم يكـون أمره الأعلى وقوله الأولى، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين، ويكون لعلمه حظ ولا يكون لغيره ، وهكذا حال هذا الإمام، فإنه بعد موته عرف النـاس مقداره ، واتفقت الألسن بالثناء عليه، إلا من لا يعتد بـه، وطـارت مـصنفاته، واشتهرت مقالاته.

فقد تعرض شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ لمحن كثيرة متتابعة، فلا يكاد تمر عليه فترة من الزمن حتى يتعرض لمحنة أو يشارك في معركة، أو تقع بينه وبـين بعـضهم مخاصمة، أو مناظرة حتى ختمت حياته بقلعة دمشق وهو صابر محتسب ، وقد حيل بينه وبين الكتابة والإفادة، فعكف على تلاوة القرآن، فختمه إحدى وثمانين ختمـة انتهى في آخر ختمة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ (القمر:٥٤، ٥٥).

1- البخاري(٦٤٣٠)

ومن المحن التي تعرض لها شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أن أهل حماة كانوا قد وجهوا للشيخ سؤالا سنة ٦٩٨هـ فأجابهم بما عرف بالفتوى الحموية الكبرى التزم فيها قانون السلف في الأسماء والصفات والبعد عن التأويل والتعطيل[1] وكان الحسد قد استقر في قلوب كثير من الفقهاء، فألبوا عليه بعض الولاة، ولكن التتار كانوا مستمرين في زحفهم، ففر الولاة والفقهاء، وصمد لها الشيخ - رحمه الله - فلما منّ الله بالنصر على التتار، واستقرت امور العباد، وعاد الشيخ إلى الإفادة والتصنيف تحرك الحسد من جديد في قلوب الحاقدين؛ لعلو كعب الشيخ وارتفاع مقامه عند العامة والولاة على السواء.

ومن ذلك ما حدث له بسبب الطائفة الأحمدية الرفاعية سنة ٧٠٥هـ ـ ، وكانوا يلبسون أطواق الحديد في أعناقهم ويدهنون بدهن خاص، ثم يدخلون النار لا يحترقون، يمخرقون بذلك على العامة من أهل الإسلام، فاشتد نكير الشيخ عليهم حتى شكوه إلى نائب السلطنة، يطلبون أن يكف الشيخ عنهم وأن يتركهم وحالهم فقال الشيخ: هذا لا يمكن ولابد لكل أحد أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولا وفعلا، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه، ومن أراد منهم أن يدخل النار فليدخل أولا الحمام، ويغسل جسده جيدا، ثم يدخل إلى النار بعد ذلك إن كان صادقا، ولو فرض أن أحدا من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل، فإن ذلك لا يدل على صلاحه، ولا على كرامته، بل حاله من أحوال المخالفين للشريعة إذا كان صاحبها على السنة فما الظن بخلاف ذلك؟

1- وهذا هو منهج أهل الكلام في الأسماء والصفات ،وقد فصلنا ذلك في خطبة تفسير آية الكرسي من هذا الكتاب .

وانتهى الحال على أن خلعوا أطواق الحديد من رقابهم، وأن من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه.

ثم ورد في السنة نفسها كتاب من السلطان يحمل الشيخ إلى القاهرة، فتوجه إليها ، وخرجت جموع المسلمين باكية حزينة لوداعه، وهو واثق يرجو ويأمل فلما وصل إلى القاهرة عقد له مجلس في القلعة، اجتمع فيه القادة وكبار رجال الدولـة والقضاء والفقهاء، فلم يمكنوه من الكلام وتولى الإدعاء عليه زين الدين بن مخلوف قاضي المالكية، فأخذ الشيخ في كلامه فحمد الله وأثنى عليه، فقيل له: أجـب ولا تخطب، فعلم أنها المحاكمة لا المجادلة، فقال: من الحاكم في ؟ فقيل لـه: القاضـي المالكي. فقال له الشيخ: كيف تحكم في وأنت خصمي؟ وآل أمر الشيخ إلى الحبس في برج أياما، نقل بعدها ليلة عيد الفطر إلى السجن المعروف بالحب، وحبس معـه أخواه شرف الدين وزين.

لبث في السجن نحو ثمانية عشر شهرا حتى إذا كان شهر ربيع الأول سـنة ٧٠٧ هـ حضر حسام الدين مهما بين عيسى أمير العـرب إلى مـصر، ودخـل السجن، وأخرج الشيخ بنفسه بعد أن استأذن في ذلك.

وخرج الشيخ فأقام بالقاهرة يعلم الخير، وينشر العلم ويجتمع عليه النـاس، حتى تقدم الصوفية بشكاية ضده إلى القاضي، وذكروا أنه يتناول ابن عربي وغـيره من أعلام التصوف في الكلام، وهؤلاء عند الصوفية حريم مقدس لا يمس، فخـير الشيخ بين أشياء: أن يقيم بدمشق أو يقيم بالإسكندرية بشروط أو يحبس، فكان أن اختار الحبس مؤثراً له على قبول تلك الشروط، ودخل السجن في العام الذي خرج فيه.

ورغب أصحاب الشيخ إليه أن يجيب في السفر إلى دمشق ملتزما ما شرطوه عليه، فأجاب وركب متوجها إليها فأبى خصومه إلا يكون في قبـضتهم وتحـت أعينهم، فصدر الأمر برده إلى القاهرة، فرد من الغد إليهـا، وأرسـل إلى حـبس القضاة، وأذن بأن يكون عنده من يخدمه، وكان السلطان الناصر بن قلاوون عارفا قدر الشيخ، محبا له، إلا أنه في تلك الفترة كان قد عزل نفسه، وتولى السلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، وكان تلميذاً لنصر المنبجي الصوفي الذي يصدر عن شرب ابن عربي في آرائه وأقواله، فأصبح شيخ الإسلام عدواً سياسياً على نحو ما، إذ ينظر إليه على أنه من أنصار الناصر بن قلاوون، ويقول في أمور الاعتقاد بغير ما يقول به السلطان بيبرس وشيخ المنبجي الصوفي .

وتقرر نفي الشيخ إلى الإسكندرية في الليلة الأخيرة من شهر صـفر سـنة ٧٠٩هـ ، ومكث بها نحو ثمانية أشهر مقيدا ببرج مليح نظيف له شباكان أحـدهما إلى جهة البحر، يدخل إليه من شاء، ويتردد عليه الأكابر والفقهاء والأعيان يبحثون معه ويتعلمون منه.

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ : ولما دخل الحبس وجد المحابيس مـشغولين بأنواع من اللعب يلتهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد، مع تضييع الصلوات، فأنكر الشيخ ذلك عليهم وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه إلى الله تعالى بالأعمـال الصالحة والتسبيح والاستغفار والدعاء، وعلمهم من السنة ما يحتاجون إليه، ورغبهم في أعمال الخير وحضهم على ذلك، حتى صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس، وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الإقامة عنده، وكثر المترددون إليه حتى كان السجن يمتلىء منهم.

وظل الشيخ بالإسكندرية حتى عاد السلطان الناصر إلى عرش مصر في يوم عيد الفطر سنة ٧٠٩هـ فأمر بإطلاق سراح الشيخ وحمله إلى القـاهرة مكرمـاً فخرج الشيخ منها متوجهاً إلى القاهرة، ومعه خلق من أهلها يودعونه ويسألون الله أن يرده إليهم، وكان وقتا مشهوداً ، ووصل إلى القاهرة في الثامن عشر من شوال، واجتمع بالسلطان في يوم الجمعة الرابع والعشرين منه.

واستمر الشيخ بالقاهرة ينشر العلم، ويحارب البدع، حتى توجـه الجـيش المصري قاصداً غزو التتار، فلما وصل معهم إلى عسقلان توجه إلى بيت المقـدس، ومنه إلى دمشق، وجعل طريقه على " عجلون " ووصل دمشق أول يوم مـن ذي القعدة سنة ٧١٢هـ وكان مجموع غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع.

عاد الشيخ إلى الشام فعاد إلى نشر العلم، وتصنيف الكتب، والإفتاء كلاما وكتابه يدور مع الكتاب والسنة حيث دارا.

وأفتى الشيخ ـ رحمه الله ـ في مسائل كثيرة من مسائل الفقه على حسب ما أدى إليه اجتهاده، فكان أن أفتي في الحلف بالطلاق بعدم الإلزام، وأنه لا يقع به طلاق، وفرق بين الطلاق المعلق وبينه، وخالف بذلك ما عليـه الأئمـة الأربعـة أصحاب المذاهب، واستنكر الفقهاء من أتباع المذاهب فتوى الـشيخ، وجـاهروا باستنكارهم، وكان ذلك في سنة ٧١٨ هـ، وأشار قاضي قضاة الشام على الشيخ بالكف عن الإفتاء في هذه المسألة ـ مسألة الحلف بالطلاق ـ فقبل ـ رحمـه الله ـ ووردت إشارة من السلطان بمنع الشيخ من الإفتاء بهذه المسألة، ونودي بـذلك في البلد، ولكن الشيخ امتنع قليلاً ثم عاد إلى الإفتاء حتى لا يقع في إثم كتم العلم.

وانعقد مجلس بدار الحكم بحضرة نائب السلطنة حضره القضاة والفقهـاء، والمفتون من المذاهب الأربعة، وعاتبوا الشيخ دون جداله، وتكرر العتاب والرجاء،

ولم يفد كل ذلك شيئا فتقرر حبسه بأمر نائب السلطنة واستمر محبوسا خمسة أشهر وثمانية عشر يوما، تبدأ من اليوم الثاني والعشرين من رجب سنة ٧٢٠هـ، وأفرج عنه بأمر السلطان في اليوم العاشر من محرم سنة ٧٢١هـ.

وعاد الشيخ إلى دروسه من جديد، إلا أن الأعين المتربصة بـه، والقلـوب الناقمة عليه، كانت له بالمرصاد، واجتمع المتأمرون عليه، وكاتبوا السلطان فجـاء الأمر إلى دمشق في السابع من شعبان سنة ٧٢٦ هـ بحبس الشيخ في القلعة قلعـة دمشق.

وفرح الشيخ بالحبس هذه المرة، وأخذ يطالع في سجنه ويصنف التـصانيف ويرسلها خارج سجنه، حتى ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده مـن كتـب وأوراق ومحابر وأقلام ومنع منعا باتا من المطالعة، وكان ذلك في اليوم التاسع مـن جمادي الآخرة سنة ٧٢٨هـ.

ولم يطل الأمر بالشيخ ـ رحمه الله ـ فقد مرض في محبسه، وكانت مـدة مرضه بضعة وعشرين يوما، واستأذن الوزير شمس الدين في الدخول عليه لعيادتـه فأذن له الشيخ في ذلك، فلما جلس عنده أخذ يعتذر له عن نفسه، ويلتمس منه أن يحله مما كان منه، فأجابه الشيخ أنه قد أحله مما كان منه لكونه فعل ذلك مقلداً غير معذور ولم يفعله لحظ نفسه، وقال: قد أحللت كل أحد مما بيني وبينه إلا من كان عدواً لله ورسوله ﷺ.

ثم توفى الشيخ رحمه الله ليلة الأثنين لعشرين من ذي القعـدة سـنة ثمـان وعشرين وسبعمائة، وكان بعد إخراج كتبه قد عكف على كتاب الله عز وجـل، فكان يختم كل عشرة أيام ختمه. [1]

البلاء أولا ثم التمكين والنصر:

لما صبر صحابة النبي ﷺ على أذى المشركين، دانت لهم الدنيا بعد ذلـك ، وخضعت لهم رقاب العالمين، فصار كل واحد منهم بعد ذلك أميراً على قطر مـن الأقطار كما قال بلال.

وسئل الإمام مالك (رحمه الله): أيمكن للرجل أولاً ؟فقال: يبتلى الرجـلُ أولاً ثم يمكن له. وقد مر معنا قول الشافعي السابق.

كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]

كرامات الصابرين :

(١) البشرى من الله لهم: قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة : ١٥٥] ومعنى صلاة الله عليهم: ثناؤه عليهم .

1- من أعلام السلف للشيخ أحمد فريد ، ط (دار العقيدة) ص(٦٥٧- ٦٦٣) .

(٢) نيل الغرف: قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان : ٧٥] ، والغرفة هي الجنة .

(٣) الأجر الجزيل: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر : ١٠]، قال العلماء : كل الحسنات لها أجر محصور من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصبر لا يحصر أجره إلا الله .

(٤) تسليم الملائكة عليهم : قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد : ٢٣-٢٤]

(٥) الجزاء بأحسن العمل: قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل : ٩٦] .

(٦) معية الله لهم: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة : ١٥٣] .

والمعية هنا هي معية النصر والتأييد، كما فصلنا ذلك في تفسير آية الكرسي من هذا الكتاب.

(٧) محبة الله لهم: قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران : ١٤٦] .